التحديات التاريخية والفكرية التي واجهت المسيحية في بداياتها

إشكالية الفلسفة المسيحية في القرون الوسطى.

د. عمار طرابلسي*

ملخص

في هذا البحث نحاول التقرب من فهم طبيعة تشكلات الفلسفة المسيحية في العصور الأولى، بما فيها رصد تلك التحولات التايخية والفكرية التي كانت سببا وجيها في نشوء فلسفة شكلية داخل منظومة الدين المسيحي، وقد استدعى هذا النمط من الدراسات، استقدام المنهج التاريخي في الجزء الأول من البحث، بما له من دور في الإشارة إلى الظروف التي ساهمت في حضور المسيحية، ثم استخدام المنهج التحليلي والنقدي في الجزء لمّا تعلق الأمر بموضوعات الفلسفة المسيحية.

وفي هذا الاستجماع بين التاريخ والفلسفة والدين، في سياق ظهور المسيحية، كان المراد دائما هو تقديم القراءة التي تنتمي لحقل المساءلات المعرفية والنقدية، لأحقية ما يطلق عليه –مؤرخوا الفلسفة– تسمية "الفلسفة المسيحية"، ونقصد بهذا؛ نقد التوجهات التي تلوّح بمفاد انسجام المسيحية بمجال البحث الفلسفي وامتداداته القيمية والمعرفية.

كما تكمن أهمية هذا البحث في كونه جزء من مشروع نقدي لمظاهر التاريخ الغربي، فالانشغال بتحليل ورصد رؤى الفكر الغربي، كان دائم الحضور والتناول على مستوى فهم حقيقة وقيمة طرح هذه المشكلات من داخل الرؤى المشتركة للمجالات المعرفية بين الشرق والغرب، فهذا يندرج من وجهة نظر معاصرة ضمن إعادة قراءة تاريخ الأفكار وتقديمه بصورة تتجاوز الحدود التقليدية في معالجة سياقات تاريخ الفلسفة.

* أكاديمي وباحث في الفلسفة، أستاذ مساعد بقسم الفلسفة، بجامعة المسيلة / الجزائر، خريج جامعة قسنطينة 2، نشر العديد من الأبحاث في شكل مقالات علمية، وشارك في عدّة ملتقيات دولية ووطنية، حول الفلسفة المعاصرة وقضاياها الرّاهنة.

مقدمة.

شهدت المسيحية قراءات تاريخية وفلسفية مختلفة، انطلقت في جميعها من مسألة تنصيص الكتّاب المقدس والتعارض مع العقل اليوناني والصدام مع الحضارة الرومانية، وداخل هذه المدارات استشكلت العديد من المسائل والقضايا التي شكلت بدورها رهانا حقيقيا أمام المسيحية لاحتواء الفكر البشري المتحرر من العوائق الإيمانية، وتقديم النموذج الديني المتعقل كحل بديل عن المواقف الفلسفية الكلاسيكية، وكانت المسألة تقتضي من جانبها الأول نشر المسيحية دعويا وإيمانيا، ثم تعقيل الأفكار الفلسفية في إطار الدين كناظم للحالة الدينية والمدنية. رفعت المسيحية رهان مواجهة الأنظار الفلسفية الشرقية القديمة واليونانية الكلاسيكية، وتحملت عبء وثقل الصورة الحضارية الرومانية والبيزنطية، التي عايشتها كاضطهاد ثم اقتحمتها بالدعوة السريّة. وقد يفضي فحص مسار المسيحية في مواجهة كل هذه التحديات إلى محاولة الإجابة عن الإشكالات التالية: هل حققت الفلسفة المسيحية في عصورها الأولى انفكاكا معرفيا عن الفلسفة اليونانية؟ وهل تجاوزت الكتابة الدينية اليهودية؟ وكيف استطاعت مجارات الحقبة الرومانية؟ وهل يمكننا القول بوجوب الفلسفة المسيحية والمسيحي الفيلسوف؟

أولا: الإرهاصات التاريخية لنشوء فكر مسيحي.

لم يهدأ التاريخ من حيث الصراع الفكري والثقافي بين الديانات المنزلة ولا الأخرى التي تعتبر كديانات إنسانية، فالحياة البشرية لطالما كانت تبحث عن الإجابات المتعلق بالإشكاليات الكبرى والمناقشات الجدلية التي غالبا كانت مصدر صراع الأمم والحضارات، ومع الصعوبة الكائنة في التفسير والتأويل والإقرار بهذه المعتقدات لدى الإنسان القديم احتاج دائما إلى ذلك الإلهام الذي يكون مصدرا ملحا لإعادة فهم التاريخ والمعتقد من وجهة نظر عصره وتجاوز ما يبدو له بأنه مسائل آفلة.

ولعل الصدام الفكري الذي سبق المسيحية كان في أوجه، بما خلفته العهود اليونانية، الفكر الديني اليهودي، الفلسفات الإنسانية وغيرها من المواقف والاتجاهات من اختلافات جوهرية على مستوى العقيدة والإيمان والتفكير، وهذا ما يحيلنا إلى النظر في نشوء الفكر المسيحي في خضم حضور الاختلاف الإنساني والحضاري.

1. اللغة القديمة والمعرفة الدينية – إجراءات التراكم التاريخي.

تشير المصادر التاريخية، أن اللغة الأولى للمسيحيين كانت ما ينطق به لسان المشرق الأدنى، من سوريا إلى فلسطين، وهي اللغة الآرامية، فيم يحافظ اليهود على اللغة العبرية التي كان أحبارهم يقرؤونها بشكل جيّد، بما هي لغة الديانة اليهودية، وسادت في مقابل هذين اللغتين ما يسمى باللغة الإفريقية المختلطة بين شعوب البحر الأبيض المتوسط، وغير بعيد عن هذا، كانت اللغة الإغريقية هي لسان العلماء والفلاسفة والتجار.

والحال أن هذا الاختلاف اللغوي بين المناطق التي كانت تجمعها شبكة تواصل، وتقاطع معرفي تاريخي، كان له الأثر المباشر على التراكم المعرفي للمسيحية، وظهور مجال التأويل فيها، إلى حد التناقض في التراجم والتداخل في المعاني، ما أحال مسألة العقيدة على المحك من التوحيد إلى التثليث.

يشير "شيني" إلى المعرفة التي كان يقدمها النبي عيسى للنّاس في قوله "وقد علّم عيسى الناس أن الحب أقوى شيء في الحياة، وتجاهل كل فروق المركز والتعليم، واختلط بكل أنواع الناس، ووعظ كل أنواع الناس: الغني منهم والفقير واليهوديّ منهم والوثنيّ والإغريق منهم والبربريّ غير أننا ما ينبغي لنا أن ننسى أنه كان رسولا إلى بني إسرائيل بصفة خاصة"[1]؛ وهذه الرساليّة تعتبر أول خطوة لانتشار المعرفة المسيحية على أقطاب شعوبية مختلفة، فهي وإن كانت رسالة سماوية موجهة إلى قوم بعينهم، لم تستثني في قيمها التعليمية بقية الشعوب التي التقت بهم وانتقلت إليهم.

والحدث الأبرز الذي يخص المعرفة المسيحية، هو شقها الطريق نحو أقطار جغرافية واسعة، بما أنها تركزت في جوهرها على تقديم التعليم الأخلاقي واللاهوتي، "وقد نقل الإنجيل في سرعة إلى البقاع وفي إحدى الأساطير أن القدّيس توما أخذه إلى الهند. وسمعته قبائل الصحراء العربية. وبه وعظ القديس فيليب الأحباش. غير أن أكبر أعمال التبشير قام بها بولس"[2]، فهذا التوسع الرهيب للمسيحية جغرافيا واعتمادها على التعليم اللاهوتي الذي كان مقتضاه رسالة التوحيد، لم يسلم من الانحراف لاحقا على مستوى الفكر العقائدي الذي تحوّل إلى فكر ديني يؤسس فيه الإنسان للألوهية بتصوراته الجديدة.

والحال أن المسيحيين يعتقدون بصدقية الروايات التاريخية التي كتبها من شهدوا أو حضروا السياق الزمني لظهور رسالة عيسى، بما أن هؤلاء الروّاة كانوا يتقنون اللغات التي تحيط بهم، فهم ناقلوا الرسائل المسيحية إلى القوميات الأخرى، ويذكر لنا "موريس بوكاي" ملمحا تاريخيا يشيد بهذا الرأي "فالمسؤولون عن هذه الطبعات يقدمون صفة شهود العيان من محرري الألأناجيل باعتبارها أمرا بديهيا. ألم يكن القديس جوستين، في منتصف القرن الثاني، يطلق على الأناجيل اسم "مذكرات الرسل"..؟ ثم إن التحديات التي

---

[1] ل.ج. شيني: تاريخ العالم الغربي، تر: مجد الدين حنفي ناصف، دون طبعة، دار النهضة العربية، مصر، 2003، ص 83.

[2] المرجع نفسه، نفس الصفحة.

تعلن على الملأ، والتي تخص المحررين هي من الكثرة بحيث إن المسيحي يتساءل: كيف يمكن الشك في صحتها: على سبيل المثال يقال إن متى كان شخصية معروفة، (...) بل يقال أيضا إنه كان يعرف الآرامية واليونانية"[3]، وحتّى غزارة المعلومات الواردة عن بطرس، مرقس، لوقا وبولس، –حسب المسيحيين– فهي تحمل صفة الدّقة والمصداقية.

غير أن هذا التراكم التاريخي من حيث قراءة الدراسات المعاصرة له، ينتفي مع الواقعية المعرفية والعلمية، وذلك لما يوصف بالحلقات المفقودة في التاريخ المسيحي الأول، فعن بولس مثلا، لا توجد أي مقاربة بحثية تاريخية تعتقد بوجوده كشاهد على رسالة المسيح أو مقرب منه، وطيلة عمره الزمني كان يسود صراع ديني عميق بين المسيحية البولسية (الرسائل التي حررها بنفسه وبدأ يحشد الجماهير لها)، واليهودية المسيحية (وهي تلك الطبقة التي يُعتقد أن رسالة المسيح خاطبتها بشكل مباشر)، فإذا كان الصراع الديني في أوجه منتصف القرن الثاني للميلاد بين أحقية الرسالة وأصالتها، فكيف يمكن تبرير مسار بولس والاعتماد على رواياته الدينية.

وعلى المستوى العقائدي يظهر هذا الاختلاف بين المسيحية اليهودية الموحدة، ومسيحية بولس التي أتت على مسألة التثليث، إننا نشير في هذا السياق للاختلاف العقائدي على سبيل حصر أدلة الروايات المسيحية، حيث كانت "عقيدة التثليث تبدو لهم ضد التوحيد الإلهي الذي تعلمه الكتب المقدسة، فلذلك أنكروها، ولم يعدّوا يسوع المسيح إلها متجسدا، بل عدّوه أشرف خلق الله كلهم"[4]، وعلى ضوء هذا فإن الدراسات للتاريخ المسيحي تصنف كل المبشرين والكتاب للمسيحية حسب انتماءاتهم إلى المسيحية الموحدة أو المسيحية التثليثية (البولسية بالتحديد)، ونلحظ هنا فارقا مهمّا وهو أن اختلاف اللغة والجغرافية

---

[3] موريس بوكاي: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، تر: الشيخ حسن خالد، الطبعث الثالثة، المكتب الإسلامي، بيروت، 1990، ص 72

[4] عط عبد الرحيم محمد: عيسى المسيح والتوحيد، تر: عادل محمد، الطبعة الأولى، مركز الحضارة العربية، القاهرة، 2001، ص 60.

أثر على هذا الانتشار للمسيحية، فاليهودية المسيحية التي كانت منتشرة من فلسطين إلى أنطاكيا كان يشير لها بولس على أنه خصم عقائدي له ولجماعته، أما روما فقد كانت فضاء جديدا لليوهودية المسيحية، وكذلك إفريقية. فالإشارة إلى هذا التراكم التاريخي لتحرير الرسالات المسيحية هو مربط فهم تطور الفكر الديني وظهور الاختلاف في جوهره ومحتواه، يقول الكاردينال دانيلو "لما كان اليهود منبوذين في الإمبراطورية، فقد نحا المسيحيون إلى الانفصال عنهم، عندئذ ساد المسيحيون الهلينستكيون: لقد حاز بولس على النصر بعد وفاته. بهذا انفصلت المسيحية اجتماعيا وسياسيا عن اليهودية لتكون ما يعرف بالشعب الثالث"[5]، لكن الانعتاق المسيحي من اليهودية لم يكن وليد منظومة مغايرة متكاملة الأركان، بل هو انفصال عقائدي وإيماني وتأويلي ثم مذهبي إنساني، أي أن غايات ومبررات المسيحيين في بعدهم عن اليهودية كانت لتثبيت العقيدة المسيحية كما يريدون لها أن تكون.

من أجل هذا، فإن قضية المسيحية كانت تحمل تأثيرات متعددة لطبيعة المحيط الجغرافي الذي ظهرت فيه، والتأويل الذي حصل، –يعتقده– المسيحيون نماذج لا يمكن التشكيك فيها، بالرغم من تواتر الاختلافات بين الجماعات والقديسين والقوميات..، ذلك أن من وجهة نظر الدراسة التاريخية فإن كل الجوانب التي تندرج ضمن السياق الاجتماعي ألقت بظلالها على المسيحية، وهو ما دفعها لهذه التحولات في بداياتها الأولى، وهو ذات الأمر الذي سيترتب عنه من جدل واسع على مستوى العقيدة والتفكير والسياسة.

فابتعاد المسيحية عن مجال التوافقات مع التاريخ الديني القديم بصورة شاملة بما فيه من عقائد وفلسفات، جعلها تبحث عن إمداد نفسها بالمزيد من التحصين والقداسة، إذ حاول المسيحيون الأوائل عدم

[5] موريس بوكاي: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، مرجع سابق، ص 75.

التأثر باليهودية ولا بالفلسفات والنصوص الدينية القديمة، بل الدعوة إلى التصديق فقط بالعهد الجديد، بوصفه نصّا رساليا مطلقا ومجددا للمظاهر الدينية والتعبدية.

2. المسيحية في مواجهة العتو الروماني.

لقد كانت تنظر روما إلى الدين المسيحي الجديد، على أنه حاجة للشعوب المستضعفة ليمكن لها من الثورة، ويفتح لها أبوابا جديدة، وبما أن المسيحيين كانوا قلّة متناثرة على أكثر من مكان فإن طبيعة المنتمين إليها كان أغلبهم من الطبقات العادية بالنظر لمكانة أباطرة روما أو حكّام الإغريق.

واجهت روما منذ البداية انتشار المسيحية، وكان ذلك من خلال محاصرتها لبيت المقدس الذي كان يقيم فيه اليهود الموحدّين، بوصفهم الجماعة المناهضة لروما التي كانت تنتظر المسيح المخلص لتنفك عن هذا الحكم الجائر –في نظرهم–، "وأمّل بعضهم أن يصبح عيسى، ذلك المسيح المنتظر. غير أنّهم تحيّروا واغتاظوا عندما قال لهم إن مملكته ليست في هذه الدنيا، لأنهم أرادوا الحرب"[6]، فاليهود المسيحيين بخلاف غيرهم، أرادوا إشعال الثورة ضد روما، وهو ما حصل سنة 80 للميلاد، فيم واجهت روما هذا التحرك بكل قوة وحاصرتهم وقضت على أغلبهم.

لكن الاضطهاد الروماني للمتدينين عموما لم يكن فقط لمواجهة هذه الثورات والتحركات باسم بالدّين، فقد كان الأباطرة قبل هذا يرفضون أي حركة يمكنها تحرير الشعوب من قبضتهم، "ولقد بدأ القمع الروماني باكرا في الواقع، وقبل أن تظهر المذاهب الصريحة في توحيدها، فالإمبراطور تراجان الذي غزا ممكلة الأنباط العربية قسا على النصارى قسوة سبقه إليها أباطرة آخرون تروى أعمالهم في

[6] ل.ج. شيني: تاريخ العالم الغربي، مرجع سابق، ص 86.

تواريخ لا تحصى"[7]، وقد عمد أباطرة روما على تكريه الشعب في المسيحيين المتعبدين، أو تلك الفئات القليلة التي كانت تجتمع في الكنائس.

فقد واجهت المسيحية طيلة القرون الثلاث الأولى عتوا رومانيا قويا، تميز بمرحلتين، حالة شنّ الحروب عليهم والقسوة في معاملتهم واستعبادهم، وسجنهم وتعذيبهم، وحالة الهدوء لمّا لا يعلن المسيحيون عن أنفسهم ويتنقلون إلى مناطق جديدة لنشر ديانتهم وتعليم الناس بها "وإنا لنعرف، على سبيل اليقين، أن المسيحيين –رغم اضطهادهم– ما كانوا ينفكون يجتذبون الناس جميعا إلى الدخول في دينهم، ولقد صدق تماما على بلاد لا تبدو، في نظرنا مسيحية، وهي الأيلات الرومانية في شمال إفريقيا"[8]، فبرغم من محاصرة الإمبراطورية الرومانية للتحرك المسيحي، كان له صيت في مواقع أخرى ما سهل انتشاره في المناطق الخاضعة للسيطرة الرومانية.

بالنسبة لروما فإن مشكلتها مع المسيحية تبرز من خلال فهمين، الأمر الأول أن المسيحيين الأوائل يرفضون تقديس قيم الامبراطورية الرومانية، بفعل أنها هرطقات وثنية لا يمكن الإيمان والتصديق بها ولا بالحكم الذي يدعمها. أما الثاني، فإنّ المسيحية حملت في كنفها اختلافا عن اليهودية التي كانت ديانة محتكرة لدى الأحبار، ولم تكن ديانة تبشيرية ولا دعوية، فأنصارها غالبا من الساكتين والكاتمين لإيمانهم، عكسها المسيحية التي اقتحمت المجالات الحيوية المفتوحة أمامها وباشرت عمليات الدعوة والتبشير بالدين الجديد.

غير أن روما بدأت ترى في المسيحية الانتشار الكثير بين الشعوب التي تقبع تحت سيطرتها، وهو ما جعلها تبحث عن مخارج لهذا المسار التقدمي، فالفكر المسيحي بدأ يرتدي عباءة الجميع بين

---

[7] فكتور سحاب: العرب وتاريخ المسألة المسيحية، دون طبعة، دار الوحدة للطباعة والنشر، بيروت، 1986، ص44.

[8] ل.ج. شيني: تاريخ العالم الغربي، مرجع سابق، ص 88.

اللاهوت والمفاهيم الفلسفية القادمة من اليونان، ولعل أن هذا التماسك الفكري والمفاهيمي هو الذي أسهم في تخريج المسيحية نحو أعداد كبيرة من المؤمنين بها.

يستوقفا هذا التوجه الروماني المرافق لنشأة المسيحية في ظلاله، فهو من وجهة نظر تاريخية ربما، يعتبر أقوى تحالف بين إمبراطورية سياسية توسعية وعقيدة دينية سماوية، وتكمن أهمية هذا المنزع في استثنائية الظرف وامتيازية التحالف، فقد لا نشهد تاريخيا نموذجا جمع سلطة واقعية مع ديانة سماوية بهذا الشكل من المسايرة، وهو في الغالب يعبّر عن دوافع أباطرة روما في تحقيق مناحي اللّقاء مع الدين المسيحي بوصفه سائرا نحو التوسع والانتشار بطريقة هادئة، فروما من خلال أباطرتها نظرت للمسيحية على أنها أسلوب جديد لتحقيق المزيد من المكاسب.

لكن الطموح المسيحي كان يرمي إلى تقوية شعائره التعبدية وتمكين روحه التبشيرية على أوسع نطاق، ما اضطر روما في عهد قسطنطين العظيم، إلى إضفاء الشرعية السياسية عبر الدين المسيحي، وجعله شعائر تعبدية وجب احترامها، إلى غاية صدور المراسيم والقوانين التي أعلنت بشكل لافت العفو عن المسيحيين المطاردين، وتبني روما رسميا للدين المسيحي في هذه اللحظة، وترك الوثنية القديمة.

لكن ما يبعث على التساؤل والاستشكال، ما مصير فكر الدولة الروماني في إطار قبول المسيحية كدين رسمي، برغم محدودية وصول المسيحيين، إلى السلطة، لكن هذا التحوّل في ذاته يعد إحداثا لنمط جديد من مسار الدولة الرومانية، التي سمحت بتأسيس الكنائس والكاتدرائيات وأماكن التعبد المختلفة، وحتّى إيمان أباطرتها وتركهم عقائدهم الوثنية السابقة بدءً من قسطنطين.

3. لوعة المسيحية وضياع الإرث العلمي القديم.

بعد صعود الفكر المسيحي في القرنين الرابع والخامس، واستملاكه لسلطة القرار، بدأت تسود ثقافة رفض كل ما يخالف العقيدة المسيحية، خاصة ما تعلق بالفلسفة العقلانية اليونانية التي اعتبرتها الكنيسة، في مصاف الهرطقة واتهمتها بالخروج عن منطق التفكير السليم.

فالمسيحية التي خاضت حربها في القرون الأولى مع بقايا الإغريق وسطوة روما، انتقلت إلى مركزية تشكيل الرؤى النّافعة التي تطابق مبادئ الدين المسيحي، وفي المقابل تجاوز المسالك العلمية والفلسفية التي كانت سائدة قبلها، ويعتد هذا الحضور المسيحي أو الكنسي إلى حد ما، غاية ورغبة مؤسساتية دينية لتنظيم حياة الفرد داخل الدولة المسيحية وفق التصوّر الديني المحض.

واجهت المسيحية كأولى تحركاتها، الفلسفة اليونانية ورفضت بشكل قاطع تعليمها للناس أو تناولها مدرسيا، وألقت بكل هيمنتها لمنع إعادة استرداد الفكر اليوناني القديم، "والواقع أن الفلسفة توقفت في أوربا بعد انتصار المسيحية (...) والسبب هو أن رجال الدين اعتبروها وثنية لا تؤمن بالله. وهكذا أدانوا فلسفة أفلوطين وأرسطو ومنعوا تدريسها"[9]، ويستتبع رجال الدين المسيحي هجومهم على الفلسفة اليونانية بوصفها مزاجا غير حامل للحقيقة الحقّة، التي ينبغي أن تدلي بالإيمان المطلق بطبيعة وجود الله ومركزية العالم اللامرئي على الواقعي، كما هو في الدين المسيحي، فالمرجعية الدينية في هذا المخاض هي بصدد مساءلة الفلسفة الكلاسيكية ورفض منطلقاتها الفكرية وقواعدها المنطقية التي تعتمد عليها، "لقد كانت وجهة نظر هؤلاء الرجال أن المذاهب الفلسفية مختلفة فيم بينها رغم أن الحقيقة واحدة

[9] إبراهيم الزيني: تاريخ الفلسفة (من ما قبل سقراط إلى ما بعدج الحداثة)، دون طبعة، كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011، ص 201.

لا تتعدد ولا تنقسم، وما اختلاف الفلاسفة إلا دليل قاطع على بعدهم عن الحقيقة"[10]، فمسوغات المسيحية في رفضها للفلسفة كانت جذرية ولا تقبل النقاش حول طبيعة ما ينبغي قوله والإيمان به.

لم يكن وحده الحصار العقائدي الذي فرضته المسيحية على بقية الفضاء الفكري سببا في تضييع الإرث العلمي والفلسفي القديم، وتوقيف عملية تقدم الفلسفة والعلم الإغريقيين، بل إن الحروب التي سادت في أوربا من القرن الخامس للميلاد إلى القرن السابع للميلاد، أيضا سببا وجيها في تلف العديد من الأعمال الرصينة في أوربا.

وعلى إثر هجوم قبائل البربر على روما، وتعاظم الحروب شمال أوربا، بدأت تتلاشى جغرافية الحدود القديمة، وتتغير محاور الصراع والسيطرة، وهنا بالتحديد يرصد المؤرخون ضياع حجم هائل من المدونات العلمية، وتوقف عملي لتأريخ هذه المرحلة، "لقد كانت فترة لم تتلف فيها السجلات القديمة فحسب بل هلكت كلها أو القدر الأعظم منها. وإنا لنقرأ، في القليل الذي بقي منها، عن الغارات والحروب والمجاعات وعن الأوبئة الشرقية التي عمت كأنها رسول جاء ليهلك العالم"[11]، ورغم هذا الحدث الجلل الذي أتى على تدمير ما في أوربا من بقايا العلوم والفلسفة والمدونات التاريخية، إلا أن البربرية توقفت عند وصولها للكنسية.

فالكنسية كانت تعرف انتشارا واسعا من شرق أوربا إلى غربها، وكان المؤمنون بها مستعدون للتضحية أكثر من أي شعوب أخرى، لكن الفارق هنا، هو أن الكنيسة استولت على الزعامة الفكرية والعقائدية وأصبحت بمثابة المصدر التشريعي والمنظم لحياة الإنسان الأوربي، حتّى أصبحت المناطق تسمى باسم الكنيسة أو القديس أو الأسقف.

---

[10] كامل محمد محمد عويضة: الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993، ص ص 6-7.

[11] ل.ج. شيني: تاريخ العالم الغربي، مرجع سابق، ص 98.

والحال أن كلا العاملين أديا بصورة ما إلى التخلي عن جزء كبير من الثراء العلمي القديم، فالمسيحية التي كانت تبحث أساسا عن توطين نفسها كمصدر مطلق للمعرفة والحقيقة، لم تكن تقبل عملية استرجاع التراث الفلسفي العلمي، ولا الحروب والغزوات البربرية والإفرنجية وغيرها، على مناطق روما، كان لها الاهتمام والتقدير لهذا التاريخ الطويل من أعمال النخب والفلاسفة والعلماء، ويمكن وصف هذه المرحلة بأكثر فترة زمنية سُجلت فيها فقدان أعمار الأجيال وتاريخها، وكذا الابتعاد الكبير عن الحركة الفلسفية التي تطورت بشكل لافت عند المسلمين في العصور الوسطى.

ثانيا: الفلسفة المسيحية واقعة تحوّل أم استرداد لتاريخ الفكر الأوربي.

لم تكن المسيحية بمعزل عن تطور تاريخ الأفكار، وحضور الفلسفة بعمقها اللاهوتي والميتافيزيقي يعد مظهرا بارزا في العصور المدرسيّة الوسطى، لكن الحديث عن فلسفة مسيحية تجمع بين الدين كهيئة مطلقة في الاعتقاد والإيمان، والفلسفة كحركة فكرية إنسانية تمارس المساءلات العميقة وجوديا وميتافيزيقيا، يدعو إلى طرح أكثر من استفهام عن طبيعة هذه الوحدة ومظاهرها وحدودها وخصائصها وأحقيتها في تحديد معايير المعرفة والحقيقة.

1. مشكلة الفلسفة المسيحية.

أثناء انعزال الفكر الكنسي عن الفلسفة الإغريقية والرومانية، لُخصت الآفاق الفلسفية داخل الدين المسيحي في البحث اللاهوتي، فالمصادرة التّي قام بها القدّيسون للمحاولات الفلسفية صنفت الباحثين عن الحقيقة إلى أهل إيمان يعيشون في مدينة الله، ومرتدّون ووثنيون يبتغون الحياة الدنيا، وهو التقسيم الشهير الذي أحدثه أوغسطين في حديثه عن تفاصيل من ينتمون إلى النصرانية الأبدية، ومن ينتمون إلى الوثنية الدنيوية.

تعد أولى مشكلات الفلسفة المسيحية، هي مصادرتها لمناحي التفكير خارج الإطار الديني والإيمان المطلق بأساسيات النص المقدّس، وهو ما أحيا الصراع بين الإيمانيين النصرانيين، والعقلانيين الرومانيين أو من درسوا الفلسفة والعلم اليونانيين، فهذه الضجة بين من يعتقدون بالفوز بحياة خالدة ضد الذين يعذبون بدنياهم، شغلت ساحة النقاش في القرون الأولى، وعطلت ديناميكيا التقدم الفكري المتسارع الذي كان سائد قبل الميلاد.

فالمسيحية في قرونها الأولى حاربت المناهج الشكيّة التي استشكلت أمر الميتافيزيقا، ذلك ما تعلق برؤى أرسطو حول طبيعة الله والوجود الآخر، وفي ذات السياق كانت متوافق نسبيا مع طروحات أفلاطون حول ثنائية العالم ومركزية اللامرئي على المحسوس، فقد خاضت المسيحية "مجموعة من الحوارات حول الله والنفس البشرية عبرت عن الأفلاطونية الحديثة، ضد الأكاديميين ووضعت خط مفصل من الحجج ضد الشك الأكاديمي"[12]، فالمسيحية التي حاربت المنهج الشكي بثوب الأفلاطونية، أحالت نفسها على مساءلة تاريخية جديدة تتمثل في هل المسيحية ترفض الفعل العقلي ككل أم تستلهم معاييره لما يتعلق الأمر بالإثباتات المنطقية؟ وهو ما يفسر ظهور فئتين من المسيحية كما –ينتقدها نيتشه لاحقا– أي ذلك الجيل الذي تسللت له فلسفة أفلاطون، ثم الجيل الثاني الذي اعتمد على مناهج أرسطو.

وقد يكون هذا الملمح الجديد هو الصفة التي تكتسيها الفلسفة المسيحية، فهي لم تعد تكتفي بالدين كإطار مفاهيمي وقيمي، بل أنها تسترد من الفلسفة روحها الحجاجية والتحليلية والتقريبية، ويعتبر مرة أخرى؛ هذا أبرز مظاهر نشوء الفلسفة المسيحية داخل منظومة الدين.

[12] Anthony Kenny: Ancient philosophy, Vol 1, 1st ed, Clarendon press Oxford, USA, 2004, p 114.

والظّاهر أن فيه مشكلة ميكانيكية أخرى، ففي ظل قبول المسيحية لمظاهر التفكير خارج الإطار الديني وجلبه نحو الفلسفة الدينية لتتحوّل اصطلاحيا إلى فلسفة مسيحية، هو القبول التلقائي لجزء كبير من مكونات التفكير الإغريقي والروماني، الذي فرضته حركة التاريخ عليها، حيث كانت "غاية في المرونة بحيث تستطيع استقبال النزعات الدينية والشعائر المنتشرة انتشارا واسعا، التي تلاقيها في العالم اليوناني والروماني، فتدمجها في عقيدتها ويكاد يكون ذلك دون إدراك منها"[13]، ويكون هذا أكثر الأسباب لانفلات العقيدة المسيحية الصلبة، وتقدم الفكر المسيحي عليها، خاصّة ببلوغ نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرّابع للميلاد، الذي شهد تزاوجا بين الفعل السياسي والكنيسة، وأضحى أباء الكنيسة لهم دور في تركيز المفاهيم، لصالح الخطاب السياسي، فمن وجهة نظر النّقاد الغربيين، يعتبر هذا انسلاخ قيمي من الدين الأصلي واعتماد نموذج منفعي يجمع بين جماعتي الدين والسياسة ليبرر كل طرف وجود الآخر.

والحال أن جوهر قضية التدين هو الاختلاف العقائدي بين الجيل الأول الذي بشر بالمسيحية أثناء نزول الرسالة، حيث كان المبدأ هو التوحيد المطلق، لينتقل إلى تثليث الإله، إن هذا الشعور الغريب بالانتقال من التوحيد إلى التثليث، يعتبر بالأساس جدل صارخ في أهم مسألة عقائدية شغلت المجتمع المسيحي في قرونه الأولى، "أحس منذ نشأته بما له في سر الثالوث من معاناة، فكيف التوفيق بين التوحيد الذي جاهر به المسيحيون الأولون مع الرسل اليهود في وجه المشركين، وبين الإيمان بأن المسيح إله وأن الروح القدس أيضا إله"[14]، وبالتالي فإن المسيحية في شكلها العام كانت مصحوبة بمجموعة من المساءلات الجدلية حول العقيدة، الفكر، الفلسفة..، هذا ما جعلها بين منعرجين حاسمين بعد القرون الخمس الأولى، وهي ضرورة الانتقال نحو التفكير العقلاني المنهجي

[13] شارل جنبير: المسيحية نشأتها وتطورها، دون طبعة، المكتبة العصرية، بيروت، دون سنة، ص 121.

[14] لويس غرديه وجورج قنواتي: فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية، تر: صبحي الصالح وفريد جبر، الجزء الثاني، الطبعة الثانية، دار العلم للملايين، 1979، ص 282.

وحتّى الشكي –نوعا ما– لتجاوز محنة ازدواجية تضارب الفكر والإيمان العقائدي، وهو ما برز كثيرا في عصور الفلسفة المدرسية، والمنعرج الآخر هو العودة إلى التصحيح العقائدي الديني والإيماني، أي ضرورة الكشف الحقيقي عن جوهر التوحيد دون النظر إلى الغاية السياسية التي كان يديرها الساسة مع الآباء الكنسيين.

2. الجدل العقائدي حول مصادر الكتب والكتابة الدينية.

طوال القرون الأولى التي ظهرت فيها المسيحية كدين، أو حتّى كفكر، لم تنفك عن ظهور الطوائف وتعدد المعتقدات والرؤى، وهي سمّة بارزة تعود في الأصل للتاريخ القديم حيث لا نجد اتفاق على مذهب أو تصور أو دين واحد، ما عجل بضرورة بحث الكنيسة عن سبيل لإيجاد توافق شرائعي للحد من هذه الاختلافات والتصدعات داخل الديانة المسيحية.

حين بلوغ أثر التوتر حول الإيمان المسيحي، استقدم آباء الكنيسة فكرة "المجامع المسكونية" من أجل توافق إيماني وعاقئدي شخصية تشتت الدين واضمحلاله، ويُعتقد أن هذه المجامع هي سبب رئيس في بلوغ حد كبير من الاختلاف جوهريا داخل العقيدة المسيحية، فسعيها كان لتوحيد الإيمان حول فكرة معينة وليس لتصويب الانحلال العقائدي في ذاته، ونستشهد في هذا السياق بقراءات "إيميل بواسمارد" في قوله "إن العقائد المسيحية التي نؤمن بها، لم تكن وليدة المسيحية الأولى (يقصد ما جاء به المسيح)، فالحواريون لم يكونوا مؤمنين بأن المسيح عيسى هو بمثابة الإله، ولم يتناولوا موضوع التثليث، فهم لم يملكوا أي سر عنه، وهو ما يؤمن به كثير من اللاهوتيين الحاليين"[15]، فالمسيحية هنا حسب نظر بواسمارد، انحرفت عن جوهرها ككتاب مقدس، بدليل الاختلاف العقائدي بين الحواريين الأوائل، وما يدعو له آباء الكنيسة.

[15] M- Emile Boismard : à l'aube du christianisme avant la naissance des dogmes, ed CERF, paris, 1999, p 7.

الاختلاف حول العقيدة من الداخل أدى بدوره إلى اختلاف الروايات والكتب المسيحية المقدسة، وما دليل تعددها واختلاف معانيها إلا حالة من عدم الاستقرار على كتاب مقدس واحد يوحد المعتقدات المسيحية إيمانيا. وضمن هذا المقصد أيضا حاول أوغستين أن يدمج الاختلاف الفكري داخل وخارج المسيحية في النقاش الديني الفلسفي بوصفه غنيمة يمكنها تبرير مسألة التوحيد، "لا يعتبر أوغستين آلهات الأسطورة الوثنية خيالا بشكل كامل، فهو على العكس من ذلك، يعتقد بأنها أرواح شريرة تستفيد من الادخال البشري لتحويل العبادة نفسها، والتي ترجع إلى الإله الواحد الحقيقي"[16]، والحال أن فهم رأي أوغستين بالنظر مؤداه أنه يدافع عن المسيحية العقائدية من خلال مهاجمته للفكر الإنساني السابق، والذي تسلل للمسيحية بدافع أحقيته حول فكرة التوحيد التي لم يتحد فيها المسيحيون بشكل صارم.

فالمعتقدات الأولى سواء الفرق أو النصوص الدينية لم تكن متوحدة حول أصل العقيدة في ذاتها، منها الذي آمن برسالة المسيح ولم يدعو لتأليهه، ومنهم من رفع مكانته أن وحده مع الطبيعة ليبرر منطقه حول ضرورة تأليه المسيح، إلى منظور التثليث الربوبي، كلها كانت خلافات ضاربة في أعماق الدين المسيحي. ويمكن اعتبار تدخل الفلسفة في المبررات العقائدية كان من هذا الباب حيث أن محاولات نقد النص الديني بدأت في التدخل وتفسير الرؤى عقليا وعرفانيا وعلميا.

ولعل أن درجة الخصام حول المعتقدات المسيحية، إضافة لتدخل الرؤى الفلسفية، أحدث قطيعة مبدئية مع الكتب الدينية، مسائلا إيّاها حول مصدر كتابتها ومنهجية اعتمادها، وهو ما عجل بظهور روّاد نقد النص الديني من داخل المسيحية، أو كما سنرى بعد ذلك مقارنة إيريجينا الكتب المسيحية واليهودية، بالنصوص اليونانية القديمة.

---

[16] Anthony Kenny: medieval philosophy, Vol 2, 1st ed, Clarendon press Oxford, USA, 2005, p 43.

والملاحظ إبّان فترة هذا الجدل حول الكتب والمصادر الدينية، واختلاف المعتقدات والأفكار الإيمانية، هو تعاظم موجة الهرطقة داخل المجتمع المسيحي، ما جعل الكنيسة تنتقل من فكرة البحث عن توحيد المعتقدات، إلى محاصرة هذا التمدد عبر استعمال قوة الدولة في فرض القوانين الإيمانية ومعاقبة كل مخالف أو خارجي عن المعتقد المسيحي، وعلى الرغم من هذه الإجراءات، إلا أن الرافضين لمظاهر المسيحية والتقديس الزائد كان في تكاثر مستمر.

فقد طرحت مسألة ما إن كان المسيح هو رسول مؤقت وليس رسالة للعالمين، استند غير المؤمنين بالمسيحية للنص الذي ورد في رواية "يوحنى" القول: "أثناء وجودي في هذا العالم، أنا هو نور العالم"[17]، ولم يؤمنوا دلاليا كذلك بمصطلح النور، فقد اعتبروه مجرد مجاز أدبي وليس رسالي عقائدي، هذا الجانب الذي فتح أبواب التأويل ودعا أصحابة لعدم الإيمان بالمسيحية لتضارب نصها الدين مع الحقيقة التي ينبغي أن تكون عليها الرسالة السماوية.

والحال أن الصراع من داخل المسيحية حول النص الديني والمعتقدات اتجاه تفسير الطبيعة، وتوجيه القيم التبشيرية، كان له الأثر البالغ في الانقسامات الداخلية، وليس فقط عدم الإيمان بها من فعل جوانب الرفض والتصدع، إذا أننا نشير إلى أن المشكلة بدأت من داخل المسيحية ذاتها، بما أنها لم تتمكن من السيطرة على النص الديني وتأويلاته العقائدية والإيمانية المختلفة. وقد نأخذ دليل الحكم على أبوليناريوس بالهرطقة من قبل المسيحية الرومانية، "ولقد أصدر الإمبراطور ثيودوسيوس عدّة قوانين في سنة 383، 384، 388 م، للضغط على هذه الشيعة ومحوها. ولكن بالرغم من هذه القوانين والضغوط، فقد استطاعت الأبولوناريوسية أن تواصل نشاطها واجتماعاتها إلى حوالي سنة 420 م على أنها كانت مضطرة أن تقوم بهذه الأنشطة والاجتماعات بطريقة سرية بعيدا عن أنظار

[17] John (9 :5).

الحكام وقادة الكنيسة"[18]، فآباء الكنيسة الموجودين في روما كانوا يرفضون الاختلاف داخل العقيدة المسيحية، ويستغلون الحكم السياسي لروما في الضغط على كل المخالفين لآرائهم ومعتقداتهم التأصيلية للدين المسيحي.

وهذه الحرب التي شنّها آباء الكنيسة على المخالفين لهم سواء من داخل دائرة الدين المسيحي أو من خارجه، ألقى بالنصوص المسيحية على عاتق التأويل والشك وعدم الاستقرار على كتاب واحد يدعو للديانة المسيحية، وهو ما يعتبر بدوره فجوة داخل السياق التاريخي لنشوء وتطور الفكر المسيحي، الذي لم يرغب بتاتا بقبول الاختلاف وتعدد الرؤى حول الأفكار الدينية والمعتقدات الإيمانية.

3. القديس والفيلسوف رهانات التجاوز.

تمتثل مشكلة الفلسفة المسيحية غالبا لذلك الانبعاث القائم على تجريدها من هذا الوصف، فالعصور الوسطى، بما في ذلك الأولى منها، لم تكن تفخر بأن يطلق عنها وصف الفلسفة، بخلاف اليونانيين الذين بحثوا عن هذا المجد، وجرّدوا منه في أحيان كثيرة الحضارات الشرقية القديمة، فغالبا لم تكن لدى القدسين والكنسيين والمتدينين عموما إشكالية إسناد مهمّة الفلسفة لهم، بفرض أنهم حاملوا لواء الدّين والنص المقدس، وهذا لا يدعوهم –مبكرا– للميولات الفلسفية.

بشكل ما، علينا مناقشة السؤال الأساسي هل أمكن للقديس أو رجل الدّين أن يكون فيلسوفا؟ وما هي حدود خطابه الفلسفي بالمقارنة مع النص الديني؟ وماذا يفعل بالنظرية الفلسفية في ظل حجيّة الكتاب المقدس؟ وغيرها من المساءلات التي تدعونا بجدية لفهم هذه المحاججة.

[18] حنا الخضري: تاريخ الفكر المسيحي، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، دار الثقافة المسيحية، القاهرة، 1986، ص 42.

تبدو هيمنة القديس بولس على العصور الأولى لافتة للنظر، وآخذة على أن تكون محورا لمناقشة دلالات تجاوز الفلسفة لصالح الإيمان الجديد بالكتاب المقدس، فنموذج بولس كان يعتقد حصرا، أن الإيمان بالكتاب المقدس هو الخلاص والمنفذ نحو تحقيق غاية الإنسان، وهو تجاوز للحكمة اليونانية التي ما انفكت تحاصر العمق الإنساني بكثرة الجدل والشك وتعدد التعاليم والقيم والأنظار والتأويلات، فما يقدمه بولس كخلاص يكون بمثابة تقديم المسيحية للأجوبة الكاملة على تساؤلات العقل الإنساني، وما لم يصل له بعقله سيدركه لا محالة بإيمانه، "إن معنى أن يكون لديك إيمان بيسوع المسيح هو أن تبلغ الحكمة"[19]، لقد سد بولس بهذه المفهومية كل محاولات استرداد المنهجية الفلسفية داخل منظومة الأفكار الدينية المسيحية، وهذا ما أصر عليه نيتشه في نقده اللاذع للقديس بولس باعتباره واحدا من الذين أوقفوا حركة الفعل الإنساني خارج الدين وسلمها دفعة واحدة للإيمان.

فالحالة الأولى، التّي تكون فيها المسيحية مذهبا معرفيا أو عرفانيا، حسب الدّارسين لها، هي تلك الميزة التي تعتقد بأن المسيحية تنتمي لحقل الفلسفات العملية التي تبحث عن سبيل واضح للخلاص، لكن هذه الميزة في ذاتها تبدو مخالفة نسبيا لمهمّة الفلسفة التي تبدأ رحلتها بالشك وتنتهي إلى فتح المزيد من الإشكاليات الممتدة.

والحالة الثانية، هي أن قارئي الفلسفة المسيحية، يعتقدون بأنها ذات مبنى واحد فكريا، أي أنهم يتحدثون عن انسجام تاريخي بين النص الدين والمحاولات الفلسفية عند القدسين بشكل خاص، وهذا الضرب بدوره يناقض دور الفلسفة التي تتأسس نظريا وفرضا على مبادئ الجدل والرد والنقد، فالفلسفة لا اتفاق واحد فيها، والاختلاف يُعد ثروتها وتقدمها في مراحل التاريخ.

---

[19] ايتين جلسون: روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، تر: إمام عبد الفتاح إمام، الطبعة الثالثة، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1996، ص 55.

هذا الأمر الذي ينقلنا لفهم طبيعة الفيلسوف المسيحي ومتى يخرج عن دوره كقديس ويمارس الفلسفة، وهل ممارسته للفلسفة فيها تجاوز لمعتقده الديني، أم يسبق تصوره الديني كل فكرة فلسفية؟

تعود سيطرة القديس بولس على عصور المسيحية فكريا بما هو الناظم الأساسي لفكرة أن المعرفة الإيمانية تسبق المعرفة العقلية أو الشكية، وقد دامت هذه الفكرة طوال عصور المسيحية حتى المدرسية منها والمتأخرة، وليس فقط عصورها الأولى.

فقد ظلت المعرفة العقلية تندرج ضمن ما هو معرفة إيمانية وأحيانا معرفة أعلى من ذلك وهي درجة المكاشفة، ولن يكون المسيحي فيلسوفا إلا إذا تدرج عبر هذه المراحل "فالفيلسوف المسيحي هو الذي يقر بعقله الحق الذي جاءت به المسيحية. أو بعبارة أخرى هو الذي يرى بعقله ما آمن به من قبل في المسيحية 'إن المؤمن بمقدار ما يقيم إيمانه على اقتناع يظفر به بواسطة الايمان، يظل مؤمنا بسيطا وخالصا أنه لم يطرق بعد أبواب الفلسفة، لكنه حين يجد من بين معتقداته مجموعة يمكن أن تصبح موضوعا لعلم، فإنه يصبح عنئذ فيلسوفا. أما إذا كان يدين للإيمان المسيحي بهذه البصيرة الفلسفية فإنه يصبح فيلسوفا مسيحيا"[20]، والواقع أن الفلسفة لم تكن لتنتمي للدّين أو تسير تحت لوائه، فهي بالأساس نظم معرفية مستقلّة مارست الفهم الميتافيزيقي والأخلاقي والعلمي قبل ظهور الدين المسيحي بشكلة النّصي المنتظم.

فالمسيحية الدينية تلغي الأساس من مباحث الفلسفة، كأن ترهن الميتافيزيقا للتسليم المطلق الذي أتى في التعاليم المسيحية، ولا تقبل أي تفسيرات منافية، حتّى ولو بدت بعض المحاولات من داخل المسيحية، كتفسيرات أوغستين عن طبيعة الله ووجوده، فهي لم تخرج عن إطار النّص الديني، إنما كانت اللمسة الفلسفية الموجودة فيها أن اعتمدت على محاولة احتواء من يفكرون ويناقشون مسألة

[20] كامل محمد محمد عويضة: الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى، مرجع سابق، ص 8.

وجود الله فلسفيا، أي هي دعوة للمسيحية بطريقة فلسفية لتبسيط الرؤى والأفهام. بالرغم من هذا نلحظ أن محاولات أوغستين لم تنفك في جوهرها عن ما قدمه أفلاطون في المدينة الفاضلة، فهذا الاستباق اليوناني العقلاني كان يقدم التفسيرات الميتافيزيقية بطريقة لاتختلف كثيرا عن ما جاءت به المسيحية، إلا أن ذلك اعتمد على الفلسفة كظاهرة معرفية.

فإذا صممنا على وصف جزء من المعرفة المسيحية بالفلسفة المسيحية، علينا تثبيت ذلك بتحديد الأطر النظرية، المفاهيم الأنطولوجية، الفرضيات الاحتمالية..وغيرها، وهو ما لا يجده المؤرخون في حوزة الحقب المسيحية إلا بعض العصور المتأخرة منها، أو المحاولات المنفردة والتي غالبا ما اتهمت بالهرطقة والخروج عن الدين.

المراحل المسيحية الكبرى تُعالج بمفاهيم تاريخية سرديّة، وتغيب عنها الأساليب الفلسفية المعمّقة، فهي لم تكن مرتكنة لمناقشة جوهر المعتقد والإيمان والوجود والأخلاق والسياسية، ولم تسمح باندفاعات الابداع فيها، بل حاصرتها بداعي أن المعرفة الدينية سامية ومطلقة غير قابلة للازدواجية والشك.

وحين البحث عن ما يصادف المسيحية بالفلسفة هو موضوع أدلة إثبات وجود الله، التي حازت على نوع من القبول بين ما قدمته التفسيرات العقلية اليونانية وحتّى الحديثة، وما يوجد عند الفيلسوف المسيحي، الذي آمن وأدى به دور العقل اللاحق إلى مزيد من الإثباتات الإيمانية حول طبيعة وأدلة وجود الله، من صفاته إلى تجلياته، وهو ما يدلي به القديس بونافانتورا "الله موجود في فطرة كل منا"[21]، وهو ما يعلي من شأن الإيمان المسيحي بالمطلق على الواقعي المحسوس الذي تنتابه حالات الحيرة والتجربة.

[21] كامل محمد محمد عويضة: الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى، مرجع سابق، ص13.

فدور العقل الأدنى بالنسبة للمسيحية، هو البحث عن المزيد من أدلة الإيمان بالله وتعظيم تعاليمه، وتطبيقات النص الديني المسيحي المقدس، وهو ما ينقل صفّة الفيلسوف للمسيحي المفكر، أي ليس ذلك الذي يؤمن بالمسيحية فقط، بل الذي يضيف لها المجال المعرفي والدلالي لصالح تثبيت المعرفة الدينية كما جاءت في الكتاب المقدس.

خاتمة.

شكلت منطلقات المسيحية مبنى مغاير لما كان الحال عليه في أوائل ظهورها، وبالرغم من الحصار الواقعي الذي واجهته، والكثافة الفكرية السائدة، إلا أنها حققت مكانة واسعة لها طوال العصور الوسطى، بل وأصبحت في كثير من الأحيان هي المركز الذي يلتف حوله الفكر الإنساني.

وتكمن المحاولات المسيحية في تجاوز الفلسفة اليونانية، أنها وضعت حدا أمام مفهوم الحقيقة والمعرفة الإنسانية، بأن وحدت شكله في الجوانب الإيمانية والعقائدية، غير أن هذا الملمح كان نسبيا في ذاته، بما أن المسيحيين اختلفوا تأويليا في العقيدة، ثم فكريا إذ وجد الفيلسوف المسيحي، أو المسيحي المتفلسف نفسه في فلك الرؤى الأفلاطونية، حتّى بإصرارهم على تسبيق العرفان والإيمان على التعقل.

وعلى صعيد الارتباط التاريخي والديني بين اليهودية والمسيحية، فإن أغلب فكر العهد القديم تسلل في حوامل العهد الجديد، خاصة فيم تعلق بشخصية القديس التي حافظت على مظاهر الحِبر اليهودي، ولعل الاختلاف الكائن والذي يردنا في هذا السياق، أن القديس خرج من عباءة الدين وحده، وحاول تقديم إجابات تعقليَّة لترصين وتحصين الإيمان المسيحي. وذات الشأن فيم تعلق بالكتابة الدينية، فهي لم تختلف عن اليهودية من حيث تعدد الكتب واحتكار النص الديني لصالح رجل الدين.

ويظهر لنا باديا المفارقة التاريخية الكبرى التي أحدثتها المسيحية عن اليهودية من خلال انتشارها السريع جغرافيا ما مكن لها واقعيا من التواصل مع الدول المسيطرة، فهي طفرة تاريخية لم تكن معهودة، أن تتحالف الإمبراطورية العسكرية والسياسية مع رجال الدين والكنيسة، ليشكلا تاريخا طويلا من التشارك في تحديد القيم الاجتماعية والمظاهر الحضارية لحقبة طويلة من الزمن.

لم يكن هذا التحالف الوحيد الذي يحسب للمسيحية، بل أيضا ذلك الإدماج الذي قامت به مع الفلسفة العقلية، التّي حاولت جعلها مبررا للإيمان المسيحي، وتقديم مزيد من البراهين الميتافيزيقية من خلاله، وظلت تنشد هذا تحت طائلة الدين، حتّى لما تعلق الأمر بتدريس الفلسفة الدينية أو الفلسفة في إطار الدين المسيحي.

فالمسيحية هي تلك النتيجة التاريخية التي صبغت أعمار طويلة من الجغرافيّة الغربية، وتمكنت في عصورها الأولى من مواكبة التحديات والتحولات الإجرائية والتاريخية والفكرية، فارضة مجالها العقائدي الإيماني على شرائح كبيرة من المجتمعات في العالم، فقد تحولت إلى قوة حيوية آمنت بها الكثير من الشعوب لدرجة تشابكها مع الإمبراطوريات الغربية، واستبدالها أحيانا بالفلسفة اليونانية، التي مثلت عصر طويل من النهضة العلمية والمنهجية والمنطقية والعقلانية.

فالنظر للمسيحية ينبغي أن يكون له زاويتين، الأولى؛ رفعها تحدي الدعوة ونجاحها في إقناع المجتمعات والأباطرة بقوة طرحها، والثانية؛ نقدها من الداخل لما آلت إليه من اختلاف فكري ونبذها لكل ما يخالفها بسلطتها المكتسبة، بالرغم من أخذها لذلك الإرث الديني والفلسفي القديم ومماثلته بما يناسب وضعها كديانة مهيمنة.

قائمة المصادر والمراجع.

أ. باللغة العربية.

1. إبراهيم الزيني: تاريخ الفلسفة (من ما قبل سقراط إلى ما بعدج الحداثة)، دون طبعة، كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011.
2. ايتين جلسون: روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط، تر: إمام عبد الفتاح إمام، الطبعة الثالثة، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1996.
3. حنا الخضري: تاريخ الفكر المسيحي، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، دار الثقافة المسيحية، القاهرة، 1986.
4. شارل جنبير: المسيحية نشأتها وتطورها، دون طبعة، المكتبة العصرية، بيروت، دون سنة.
5. عط عبد الرحيم محمد: عيسى المسيح والتوحيد، تر: عادل محمد، الطبعة الأولى، مركز الحضارة العربية، القاهرة، 2001.
6. فكتور سحاب: العرب وتاريخ المسألة المسيحية، دون طبعة، دار الوحدة للطباعة والنشر، بيروت، 1986، ص44.
7. كامل محمد محمد عويضة: الفلسفة المسيحية في العصور الوسطى، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993.
8. ل.ج. شيني: تاريخ العالم الغربي، تر: مجد الدين حنفي ناصف، دون طبعة، دار النهضة العربية، مصر، 2003.

9. لويس غرديه وجورج قنواتي: فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية، تر: صبحي الصالح وفريد جبر، الجزء الثاني، الطبعة الثانية، دار العلم للملايين، 1979.

10. موريس بوكاي: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، تر: الشيخ حسن خالد، الطبعث الثالثة، المكتب الإسلامي، بيروت، 1990.

ب. باللغات الأجنبية.

11. Anthony Kenny: Ancient philosophy, Vol 1, 1st ed, Clarendon press Oxford, USA, 2004.

12. ——————: medieval philosophy, Vol 2, 1st ed, Clarendon press Oxford, USA, 2005.

13. M- Emile Boismard : à l'aube du christianisme avant la naissance des dogmes, ed CERF, paris, 1999.